

عنوان المداخلة

تمثلات المشترك الإنساني في فكر التنويريين الفرنسيين والمصريين في القرنين 18

و19.

الأستاذ محمد أوجرتني

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا / الإشكالية.

ثانيا / أسئلة الإشكالية.

ثالثا / الإنسان في الثقافات البشرية.

1. ماهية الإنسان.
2. الإنسان في الفكر العربي الإسلامي.
3. الإنسان في الفكر الغربي المسيحي.
4. الإنسان بعد النهضة.
5. في الثقافة اليهودية.

رابعا / الأنسنة في بيئتها الأوروبية.

1. عصر التنوير.
2. فولتير أيقونة الأنسنة.
3. جون جاك روسو.
4. موقف الكنيسة.

خامسا / الأنسنة في بلاد المشرق.

1. الطهطاوي على خطى الأنسنة الفرنسية.
2. قاسم أمين على خطى الطهطاوي.

سادسا / خاتمة البحث.

أولا / الإشكالية:

تعد القيم الإنسانية من أؤكد القيم السائدة والمسيطرّة في الراهن البشري اليوم، ومنذ بواكير عصر النهضة، حيث رسمت مسارات النقاش الذهني والفكري بين المجتمعات البشرية بمختلف انتماءاتها الدينية والمذهبية والعرقية. لقد صار بإمكاننا اليوم أن نصف هذا العصر الذي نعيشه إلى حد ما بعصر انتصار القيم الإنسانية على غيرها من القيم الدينية الوضعية أو الدينية السماوية، لحجم ما حققته من مكاسب ومساحات، بمآزرة العلم الحديث وبفضل النتائج الباهرة التي توصل إليها العقل البشري في مجال علوم الطبيعة والحياة. وقبل مناقشة معنى القيم الإنسانية وجب علينا معرفة مستوى التعريف في محيلتنا كباحثين، فهل نقصد بالقيم الإنسانية الصفات الفطرية في الإنسان والحاجات المبتوثة بداخله، كحبه ورغبته للأكل والرفاهية والمتعة، وحب التملك والسيطرة، أم نقصد بالقيم الإنسانية تلك القوى الكبيرة للعقل البشري التي اكتشفها الإنسان بعد تحرره من إصر الكنيسة الكاثوليكية واللاهوت الديني بصورة عامة، وتطويع مسارات الحياة وفق ما يريد وما ينبغي...؟؟

ثم ما هي مبررات عقد مقارنة بين بيئة التنويريين الغربيين وبين دعاة التنوير المشرقين، هل تهدف إلى : إبراز خصوصية البيئة الغربية التي أثمرت بها القيم الإنسانية وعجز البيئات الشرقية إلى حد بعيد في احتضان هذه القيم وازدهارها؟؟ أم من أجل الوقوف على خصوصية الفكر الأوروبي في تلك المرحلة، وكيف استطاع بعث الحياة في فراغ الحياة الفكرية المهيمنة عليها الكنيسة الغربية؟؟ ألا يعبر هذا العنوان على أزمة هوية فكرية نعيشها نحن في الشرق وأن معالجتنا لازمة الفكرية ما يزال معالجة كلاسيكية باهتة لا تتجاوز تقديم تعريفات وتصنيفات للمستشرقين ودوافع الاستشراق وأهدافه، وتصنيف المستشرقين إلى مستشرقين طيبين متفهمين وغارقين في حب الحضارة الإسلامية ومستشرقين غلاة متعصبون ومتطرفون؟؟ نرسم تحت أسمائهم خطأ غليظا ونحذر من قراءة مؤلفاتهم، لكن في الوقت نفسه نعجز على تقديم البديل الفكري والحضاري المناسب الذي يثبت قدرة الثقافة الشرقية وتراثها على استيعاب الإنسان بكل تناقضاته ومكوناته المعقدة؟؟

إننا في غمار البحث في مجال الأنسنة نتجاوز أحيانا مراحل تاريخية سابقة قام بها الشرق حينما كان متفوقا في مجال قيادة الأفكار عالميا، فقد عاش الشرق بين القرنين السابع والثاني عشر الميلاديين مرحلة من مراحل القوة، حيث رسمت الحضارة الإسلامية في العهد الأموي والعهد العباسي مسارات للبشرية بزخم إبداعي متميز، لم تعشه الحضارات السابقة وانفتح المسلمون على حضارات غيرهم وثقافتهم وانكبوا عليها بالدراسة والبحث والنقد والنقل والاقْتباس والترجمة، وكم هي عدد المؤلفات التي أنقذها المسلمون من غياهب النسيان وأخرجوها من طي الكتمان وقدموها للبشرية لتستفيد منها وتطلع على تجارب وخبرات الأمم والثقافات القديمة، من بلاد فارس والهند والصين واليونان والرومان.

وكما هي قوانين التدافع والتداول بين الحضارات فإن النهضة الأوروبية بدأت في جنوب إيطاليا، متأثرة ببقايا الإشعاع الفكري المحتقن في الشرق، بحكم اتصالها بصقلية التي كانت معبرا حضاريا بين الشرق وبين أوروبا الغربية، فضلا عن الموقع الجغرافي الهام والرخاء الاقتصادي الذي كانت تشهده الجزيرة¹، وهو ما يخالف رأي المؤرخ مارك بلوك 1889-1944 أن أوروبا برزت للوجود باختيار الإمبراطورية الرومانية²، نافيا بذلك أي استفادة للغرب من الشرق.

هل تكفي قيم الأنسنة وحدها في بناء مجتمعات بشرية يسودها العدل والمساواة والاحترام، وقد عرف العالم الغربي بعد 150 سنة من إرساء هذه القيم وتداولها في بلدانه أشرس الحروب الكونية التي انتهت بمئات الملايين من الضحايا الأبرياء؟؟

إن خصوبة البيئة الغربية التي أثمرت بها القيم الإنسانية، لم يقابلها عقم البيئات الشرقية فحسب إلى حد بعيد في احتضان هذه القيم وازدهارها،... فهل يعود ذلك خصوصية الوضع الفكر الأوروبي في تلك المرحلة، و فراغ الحياة الفكرية وهندسة الكنيسة الغربية لمتتالية حسابية معقدة؟؟ وهل يعود الفشل في نجاح التجربة الأنسانوية التي تصدر لها الطهطاوي ورفاقه إلى خصوصية البيئة الشرقية وسيطرة المحافظين وأصحاب النص؟؟ وعدم استعداد المجتمعات والنخب إلى خوض غمار تجربة غريبة، هم في غنى عنها؟؟ اشتهر بعض ملوك فرنسا رغم استبدادهم بتشجيعهم للعلم والعلماء منهم فرانسوا الأول 1494-1540 الذي يرجع له أفضل في إنشاء الكلية الفرنسية كولاج دو فرانس ويعتبر من مفاخر الفرنسيين اليوم أطلق عليه أب الآداب³.

وفي هذا الإطار يرى المفكر العربي فهمي جدعان⁴ في كتابه نظرية التراث، أن النخب الشرقية تستلهم التراث من الماضي كي تبرر به الواقع الحاضر، "وأن عملية الاستلهام هاته ليست إلا عملية تسويغ لقيم الحاضر، بإسقاط غطاء تراثي عليها، ومهما يكن فإن الذي يحدث عملياً أن الحاضر هو الذي يفرض قيمه، ويلزم بها غيره" ومفاده لا قدرة للنخب الشرقية على صناعة الحداثة ولا قيم الأنسنة.

1 - شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق، تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات القاهرة 200، ص 09.

2- جورج فرم ترجمة رلى ذبيان، تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب، دار الفارابي بيروت لبنان 2011. ص 107

3 - شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق، المرجع السابق، ص 11.

4 - مفكر وفيلسوف أردني ولد سنة 1940 حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة السربون في الفلسفة وعلم الكلام في التراث

الاسلامي، درس الفلسفة والفكر الإسلامي له عدة آراء جديدة حول الإسلام السياسي، والحداثة، وله عدة مؤلفات منها :

أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، الخنة - بحث في جدلية الديني والسياسي في الإسلام، الطريق إلى المستقبل،

والماضي في الحاضر، الإسلام وتحولات الحداثة الإنسان والإنسان الشامل في فكر التحديث والنهضة وغيرها من المؤلفات.

من مبادئه الفكرية القول بأن المسلمين ليسوا في حاجة، للدخول في الشؤون الحزبية والصراعات الإقليمية بقدر ما هم بحاجة إلى إصلاح

الإنسان، وتجسيد مبدأ الإيمان الصادق لا الإيمان المستعلي. وهو يرفض تمثلات الإسلام السياسي الموجودة في هذا الزمن على اعتبار أن الإسلام غاية

أكبر من مجرد الوصول إلى السلطة. ويعتقد أن المسلمين مطالبون ليقِيموا حياتهم ووجودهم لا بالرجوع إلى جيل سابق وبشر آخرين، وإنما بالرجوع إلى

أوضاعهم التاريخية المباشرة وإلى واقعهم المرير. ويرى أن لا نَحضة ولا حرية ولا كرامة للإنسان ما دام يهدده الجوع والمرض.

ويعد عصر التنوير مرحلة هامة من مراحل البحث عن الذات الأوروبية عاشته القارة العجوز وساهم في إنتاج أفكار وضعية وعقلانية، شاركت في نجاح الثورات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها أوروبا خلال القرنين 18م و19م وأسفرت على قيام الدول القومية الحديثة.

انطلق إشعاع التنوير من إيطاليا ثم انتشر في بقية أجزاء القارة، التي كانت متعطشة للتغيير والبحث. لقد كان لانتشار صناعة الورق والطباعة، وتبلور الجراءة على نقد النص الديني، دورا بارزا في اكتمال رؤية هؤلاء الأعلام لمعالم طريق الإصلاح ومساراته، وما هو الا وقت قصير حتى استطاعت حركة التنوير أن تقدم نمطا واحدا للذوق الإنساني في الفن والأدب والجمال، انتهت بإحياء الآداب اللاتينية القديمة وانتعاش الحركة الثقافية واللغات المحلية والعودة للاستثمار في المصادر الكلاسيكية الرومانية والهلينينية، في شتى المجالات المعرفية.

وكان للفنون دورا بارزا في حركة النهضة الإنسانية وكانت جنبا إلى جنب مع الفلسفة والعلوم التجريبية والتأليف السياسية وضمت المسرح والموسيقى وفن النحت والرسم¹. فد ساهمت الموسيقى في رسم الوجه الجديد والمجيد لأوروبا، كما كانت موردا هاما من موارد الأنسنة بكل أشكالها، الموسيقى الدينية الحزينة أو الموشحات الغنائية أو القداديس الكنائسية، رافقت الإنسان في الغرب في حراكه الكبير للتحرر من قيود الماضي، فحررت الجماهير من عزف الكنيسة الحزين وغرست في الناس قيم الثورة والحب والجمال² كالموسيقي الإيطالي مونتيفيردي 1567-1643 وفيفالدي وبيتهوفن وفون باخ وأونطون دقوفراك 1841-1904 وغيرهم³.

ويؤكد الواقع المعاش ومسارات التدافع الحضاري التي رافقت حياة الجماعات البشرية أن التباين في تحديد مفهوم الإنسان الذي يشكل حجر الزاوية في تحديد معنى الأنسنة يختلف من مكان لآخر ومن ديانة لأخرى ومن ثقافة إلى ثقافة أخرى، مما من شأنه أن يربك أي مقاربات بحثية.

ثانيا / أسئلة الإشكالية:

لقد كان للطهطاوي دورا في بعث النهضة الفكرية عهد محمد علي باشا وتوريث الفكر التنويري بمفاهيمه الغربية الأصلية للأجيال القادمة، لكن هذه لم تتمكن من بناء حكم مدني بالنمط الغربي، ولا نجحت في تحرير العقل العربي من دائرة الركود والمراقبة والإعجاب بالتحويلات الحاصلة في أوروبا.

فإلى أي شيء يمكن أن يرجع أسباب النجاح والإخفاق بين العالمين الغربي و الشرقي؟ وإذا كانت القيم الإنسانية واحدة لا تتجزأ فلم وقع الاختلاف والتعثر هنا والتجسيد والنجاح هناك؟؟ وهل يمكن إرجاع المفارقة إلى اختلاف مسارات الأنسنة في الغرب وفي الشرق؟؟ حيث اعتمد الغرب كلية على العقل البشري، الذي يعد مصدر الإلهام والتفكير الأساسي، وتحرره المطلق من قيود التدين وفلسفة التفكير الديني القائم على تقديس

1 - شوقي الجمل وعبد الله عبد الرزاق، المرجع السابق، ص18.

2- جورج قرم المرجع السابق ص194..

3- جورج قرم المرجع السابق ص197.

الموروثات والحوار المختلفة؟؟ وأما في الشرق فقد تعثرت مسارات الأنسنة كون النص الديني والقواعد الفقهية الضابطة للشريعة الإسلامية كانت تمثل مصدر الإلهام الأساسي والتفكير المنهجي الأوحده؟؟.

كيف لم يساهم تحرر العقل البشري الإسلامي الذي نراه في تعامله مع مسارات الاجتهاد الفقهي والبحث في القضايا المختلفة أن يتلمس حاجة الناس إلى قيم جديدة في ظل التحولات العميقة التي تشهدها أوروبا والعالم؟.

هل قضية الأنسنة إنتاج غربي صرف أم صناعة إنسانية تراكمية؟
لماذا نسعى دوماً في ملتقياتنا وأبحاثنا ودراساتنا أن نجيب على تساؤلات لم نساهم نحن في طرحها،
وندارس إشكاليات لم نضعها أو نساهم في بنائها؟؟
لماذا يحصل لنا الشعور دوماً بأننا نجيب الآخر بانشغالات تخصه هو؟؟

هل المكون الثقافي الإنساني على اختلاف الديانات والمذاهب والملل والنحل كيان بشري مشترك؟؟ وإذا سلمنا بذلك ما هي الآثار والنتائج والانعكاسات المترتبة؟؟
هل الثقافة الغربية المهيمنة اليوم بإمكانها أن تمثل عمقا إنسانيا وتطرح نفسها كملاذ آمن للإنسان المعاصر، فتستجيب لتطلعاته المختلفة؟؟ بقدر ما تمثل رمزا من رموز الاستبداد الفكري والحضاري، فأغلب قيمها مستلهمة من الثقافات الهلينية والرومانية القديمة ومن التيارات الغربية التي ظهرت في عصر النهضة ومن النزعات الفلسفية التي نتجت كحتمية للصراع بين العقل الإنساني المفكر والنص الديني الكنسي المحرف، الذي عجز على مواكبة التطور البشري.

إن الجواب حتما بالنفي فقد ركز الخطاب الأوروبي دوماً على عبقرية أوروبا معتمداً على تفوقها العلمي والطفرة العلمية التي اضطلع بها قاليو وكذلك على الثورة الصناعية¹، التي منحت خيرات العالم كله لأوروبا على طبق من حرير ومنذ قيام النهضة الغربية والفكر الأنسني ماض في تجدد يخاطب نفسه بنفسه، حتى جاء هيتينغتون ووضع مفهوم صراع الحضارات الذي يرى أنه جوهر الثقافة الفكرية الأوروبية مستندا إلى أطروحات برنارد لويس المستشرق البريطاني المتعصب.

لقد أشاع إيمانويل هينغتن فلسفته التدميرية التي ضربت قيم الأنسنة في الصميم، والتي تعرف بصراع الحضارات، وهو مفكر ذو نوعية رديئة على حد تعبير صاحب كتاب تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب، حيث اعتمد على برنارد لويس الذي أشاع العدوانية في وجه الإسلام وزعم خطره على الغرب². كما أن استمرار اسطورة

1- جورج قرم تاريخ أوروبا المرجع السابق ص 194

2- جورج قرم المرجع السابق ص 43

الحمالات الصليبية في الذاكرة الأوروبية الملهمة للمخيال الغربي¹ ساهمت بدور كبير في ترسيخ الإحساس عند الغربيين بأنهم حاضوا المعركة المجيدة في ذلك الوقت²

لقد كان القرن العشرين قرن الازدهار للقيم الإنسانية في وقت نحس فيه أنه قرن الدماء والنار والحرب على البشرية جمعاء، وفي نفس الوقت لم يعرف أي قرن مثله من تطور في العلم والعلوم الاجتماعية والطبيعية والسياسية، حيث شهدت فترة بين الحربين خطوات علمية عملاقة، لكن القتل كان فيها جسيماً³، كما أن التحولات التي آدت إلى تغيير أنظمة الحكم في أوروبا بالسلم محاربة الملكية والاستبداد خلال 60 سنة من الحرب العالمية الأولى إلا أنها لم تحقق ذلك فسرعان ما عاد التوتر والتنافس في الشرق الأدنى والشرق الأوسط وشرق إفريقيا والبلقان⁴

يقول الفيلسوف توماس مان غزو العالم حلم قديم وكل عقيدة تريد أن تغزو العالم والخطورة هي وأنها لن تكون الا مجرد وسيلة لغزو العالم⁵.

ثالثاً / الإنسان في الثقافات البشرية.

1. ماهية الإنسان

الإنسان في اللغة: هو ذلك الكائن الحي العاقل الذي منحه الخالق مقدرات عضوية وعقلية جعلته يختلف عن الكائنات الأخرى ويتفوق عليها. والإنسان اسم جنس لكائن حيٍّ مفكّر قادر على الكلام المفصّل والاستنباط والاستدلال العقليّ، يقع على الذكّر والأنثى من بني آدم، ويطلق على المفرد والجمع قال الله تعالى في كتابه العزيز: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ"، وهو الكائن الحيّ المفكّر. والجمع منه أناسيّ بوزن أفاعل.

وفي المعجم الوسيط عرف الإنسان في اللغة بأنه الكائن الحي القادر على التمييز والتفكير، وهو اسم جنس لكائن لديه القدرة على التفكير، والكلام والاستدلال بالمنطق والعقل.

وتُطلق كلمة إنسان لغةً على المفرد والجمع. ووفقاً لقاموس إكسفورد، فإن مفهوم الإنسان يدل على التسميات القائمة على وصف الكائن البشري أو الجنس البشري، وورد في قاموس كامبريدج أن مصطلح الإنسان يتم إطلاقه على مختلف الكائنات البشرية التي تعيش على الأرض، سواء كانوا رجالاً أو نساءً أو أطفالاً.

ويرى البعض أن كلمة الإنسان أصلها عربيّ ومشتقة من النسيان⁶ أو قد تعني الظهور والبروز والتجلي خلافاً للجن التي لا يراها الناس.

1- جورج فوم المرجع السابق ص89.

2- جورج فوم المرجع السابق ص91

3- يوشكا فيشر عودة التاريخ، العالم بعد 09/11/ وتجدد تاغرب ترجمة هان ي صالح الهيكان للنشر السعدية 2009

ص11..

4- يوشكا فيشر المرجع السابق ص11.

5- يوشكا فيشر المرجع السابق ص11. وما لعداها

6- ورد في لسان العرب لابن منظور: "إنما سُمي الإنسان إنساناً، لأنه عُهد إليه فنسي"

ويعرف العلم الحديث الإنسان علميا على أنه الكائن الحي الوحيد العاقل، والمالك لدماغ كبير عالي التطور، يملك القدرة على التفكير المجرد والنطق واستخدام اللغة والتفكير الذاتي الداخلي والتواصل مع غيره من بني جلدته.

2. الإنسان في الفكر العربي الإسلامي:

هو كائن متميز عن غيره من الكائنات مفضل وممنوح له كل الأدوات والوسائل لتعمير الأرض والتناسل فيها، ويستمد هذا التعريف من فكر ثابت مستمد من العقيدة الربانية، ومنظومة القيم والأخلاق الإسلامية، وقواعد الاعتقاد والتصور الإسلامي، التي أكدها الوحي والنص الحديثي الصحيح.

والإنسان كائن مكلف ومخلوق لهدف ولغاية قصوى أنيطت به ثابتة لا تتغير، ودور الإنسان في الحياة وخلافته فيها ثابت لا يتغير، ورجوعه إلى ربه في النهاية بعد وفاته ثابت لا يتغير، وشئى القيم التي منحت للإنسان لتوضيح شريعته وسبيل حياته ثابتة لا تتغير..

ويرتبط الفكر العربي المعاصر عضويا بالفكر الإسلامي هذا الأخير الذي بلور تعريف الإنسان في ذلك الكيان البشري القائم بذاته والمكلف ببناء نفسه وتحقيق العدالة بنفسه في إطار قيم ثابتة أنزلت له عن طريق الأنبياء وتوارثتها الأجيال جيلا بعد جيل، والاستعانة بتلك النصوص والتوجيهات في ضمان الحقوق ورسم الواجبات، في حين ظل الفكر العربي يترنح في تعريف الإنسان بين تأثيرات الفكر الإسلامي من جهة وتأثيرات تحديات الحداثة والعصرنة التي هيمنت قيمها على العالم.

ويطرح بعض الدارسين رؤية ابن خلدون كمؤسس لعلم الاجتماع من خلال إثارته إشكالية العمران البشري الذي هو أسس الاجتماع البشري، والذي يكون الإنسان فيه أصلا باعتباره لبنة المجتمع، وهو بذلك يحدد أحد أركان الرؤية الكونية التوحيدية الذي يبنى عليها الفكر الإسلامي والمتمثل في "الإنسان" والكون والغيب الذي ساق الحديث عنه القرآن الكريم، لكن كثيرا من الحداثيين والإنسانيين العرب المعاصرين يتساءلون عن الشيء الذي يُعطي المشروعية في تأويل "الخطاب" سواء كان هذا الخطاب "مقدسًا" أم لا، ولماذا يبقى علم التأويل محتكرا بيد أشخاص معينين دون غيرهم بدعوى أنهم يمثلون الفهم السليم للإسلام؟؟ فالخطاب الأنسني الإسلامي تشكل من خلال التفسير الديني والتنزيل الفقهي للنص الديني، ومن هنا تسربت كما يقول البعض مظاهر التوتر والقلق في فهم وتجسيد المثالي والواقعي.

والإنسان عند الفقهاء هو ذلك "المكلف"، المطيع للأوامر المحتتب للنواهي، أي بتعبير قانوني حديث هو بين تأدية الواجب "الفرائض" وتجنب الممنوع "المحرمات".

وقد انتقد الفلاسفة وعلماء الاجتماع هذا القول خاصة حينما منح الفقهاء السلاطين وأولي السلطة اليد العليا لممارسة تجسيد هذا التصور، فتحول تفسير النصوص في صالح هذه الطائفة ومكثها من عامة الناس على امتداد أزمنة طويلة من التاريخ الإسلامي..

و خالف الفلاسفة الفقهاء حينما ركزوا على حرية إرادة الإنسان وعدم إكراهه على اعتناق مبدأ معين، واعتبروا الإنسان بعقله وهو الوسيلة الوحيدة لإدراك التكليف وواجب التعايش الاجتماعي. فالناس عندهم لا يتفاضلون إلا بالقدرة على استعمال العقل للوصول إلى مراتب المعرفة الدينية. وتعد المعرفة وتطوير القدرات العقلية ضرورة لبلوغ الغايات وتحقيق المقاصد ونذكر من هؤلاء الفلاسفة ابن رشد والكندي وأبن سينا¹.
في حين اعتبر المتصوفة أن الإنسان المرجو بلوغه هو الإنسان العارف، المتمكن من المعارف الإلهية التامة الكاملة، وهو الإنسان الجامع لخلال التدين ومقاصد الشريعة. ويضع قطب التصوف الإسلامي الشيخ "محيي الدين ابن عربي" توصيفا آخر للإنسان سماه "الإنسان الكامل"، الذي تتطابق حياته مع حقيقة الوجود وغايته².

3. الإنسان في الفكر الغربي المسيحي

أما الغرب فقد تباينت كثيرا فلسفته في تعريف الإنسان، حيث تأثرت بظهور عصر الحداثة وبداية خطاب حقوق الإنسان والثورة على الأنظمة الرجعية الفاسدة التي كانت تستلهم من الديانة المسيحية كينونتها وتبلور النضال ضد مظاهر الظلم والاستبداد والتمييز الديني والعرقي والفتوي، والتأكيد على حقوق الإنسان الأساسية في أن يكون حرا في بناء قيمه ومبادئه التي يسير بها.

ففي زمن سيادة الحضارة الإغريقية اليونانية عرف الفلاسفة اليونان كأرسطو وأفلاطون الإنسان بأنه كائن حي يتميز بعقله الذي هو "مناط التكليف"، وأساس المسؤولية والجزاء. وبتجلي الديانة المسيحية شكلت المعين الأساسي للفكر الغربي، رغم ما تحويه من الفوضى في القيم والمعتقدات، لكنها أعطت الأوروبيين وعيا مشتركا³، فالإنسان في هذه الديانة يعد الكائن الوحيد الذي خلقه الله وأعطاه السلطان على سائر المخلوقات التي خلقها، وهذا منطوق النص الديني في الكتاب المقدس الذي قال الله فيه "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض"⁴.
فالمسيحيون يقولون بأن "الإنسان شخص مثل الله في كونه شخصاً له صفات أدبية، ولأنه شخص فله أيضاً فكر ومشاعر وإرادة، لذا يستطيع أن تكون له علاقة شخصية روحية لأن له الطبيعة الروحية". ويرد فون أن الله لم يختر أن يخلقنا على صورته مصادفة أو مجرد تكريماً لنا فحسب، بل ليعطينا إمكانية أن تكون لنا مع الله علاقة شخصية وفريدة، ومن تلك الصفة تنتج حرية الإنسان وإرادته الحرة في مباشرة الحياة وتمثل آدميته وإنسانيته في التعامل مع غيره وفق الضوابط السامية التي تدعو لها تلك الديانة، جاء في الإنجيل "وتجددوا بروح ذهنكم وتبلسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق"⁵.

1- إبراهيم مذكور ، في الفلسفة الإسلامية : منهج وتطبيق ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 3 ، 1976 ، الجزء الأول ، ص

2- محي الدين ابن عربي : فصوص الحكم ، تحقيق أبو العلا عفيفي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د ت ، ص. 199

3- - جورج قرم المرجع السابق. ص 107

4 - مقتبسة من صفر التكوين 1: 26 .

5 - المرجع السابق (أف 4: 23، 24)

ويروى عن النبي عيسى اليسوع مرة أن خاطبه بعض أتباعه " يا معلم نعلم أنك صادق ولا تبالي بأحد لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس"¹ فهو لا يحتقر الفقراء والمساكين مقابل تجليل الأغنياء والمترفين لأن رسالة السماء التي نزلت عليه تأمره أن يكون متصلاً بالناس جميعاً وهذا ما عده بعضهم إعلان عالمي لمسؤوليات الإنسان.

فيسوع المسيح هو النموذج الأسمى عند أتباع الديانة المسيحية قام بمسؤولياته كلها في التحلي بإنسانيته وكان طوال حياته ضحية لانتهاك حقوقه كإنسان، فمن طفل لاجئ في مصر، إلى نبي بلا كرامة في بلاده فلسطين، لقد ضحى بكل ما يملك وما تقتضيه وتقدر عليه إنسانيته من أجل الآخرين وأدين بغير حق وعذب بوحشية وُصِّلب، ليدافع ليس عن حقه وإنما عن حقوق الإنسان بصورة عامة. وهو ما أشار إليه الإنجيل حيث يقول: " فالله قاض ليس عنده محاباة، هو لا يأخذ بالمظاهر الخارجية أو الظروف، وهو لا يظهر أية محاباة مهما كانت خلفيتنا العرقية أو الاجتماعية".

4. الإنسان بعد النهضة

قال جون كالفن المصلح الشهير في كتابه "أسس الديانة المسيحية" "أنه لا يمكننا أن نفكر جدياً في أنفسنا دون أن نفكر كذلك في صانعنا وخالقنا الذي لم يهملنا بل هو مستمر في رعايتنا والعناية بنا ومنحنا إمكانيات لا يمكن أن تكون من صنع أنفسنا".

وقد سعى فلاسفة معاصرون على إلغاء عنصر العقل من تعريف الإنسان مثل "نيتشه" حيث يرى أن العقل ليس سوى غريزة كباقي الغرائز الأخرى، طورها الإنسان ليغطي على ضعفه أمام الكائنات الأخرى.

وكان نيتشه يومئذ من خلال نظراته الفلسفية التي قلبت كيان تعاريف الإنسان إلى الدعوة إلى أن بتغيير وظيفة العقل عند الإنسان ليست سوى لخدمة الغرائز الحيوانية في هذا الكائن.

ودعا في مقابل ذلك الوجوديون من أمثال سارتر، إلى تحرير الإنسان من القوالب القديمة الجاهزة وأن الإنسان هو المسئول وحده عن وضع مقاييس الحق والخير، ولو كانت هذه القوالب هي المصادر الدينية نفسها.

وأيدت النظريات الشيوعية هذا التفسير للكائن البشري حيث رأت أن الإنسان ما هو إلا مادة شأنه شأن الكائنات الحية الأخرى الهامدة والمتحركة فالإنسان من المادة ويعود إليها، والمادة هي الأصل لكل شيء، والأساس الذي انبعثت منه الكائنات الحية وغير الحية، وهي الخالق الذي أنشأ الحياة، والإنسان، وزرع فيه مشاعره وأفكاره، وقيمه التي يؤمن بها ويحارب من أجلها.

وتباين موقف الليبراليين في تعريف الإنسان معتبرين إياه مرتبطاً بمكانته الاجتماعية والاقتصادية، فالناس متباينون من حيث قدراتهم في تملك وسائل الإنتاج وصناعة الخيرات، ويظل الإنسان في الفكر الرأسمالي كائن سام فقط بما يملك من تلك الموارد ويظل يشعر بالخطر، وبالصرع المستمر مع نظرائه من بني الإنسان.

ولم تتفرد الشيعوية والاشتراكية في التأسيس لإنسان خال من القيم الروحية والأخلاقية إذ اشتركت معها الرأسمالية في بناء فلسفتها على النزعة المادية، ودعت إلى الاعتبار بالإنسان دون قيم الأخلاق¹.
ويذكر أن كلمة إنسان **humain** اشتقت من مصدرين أساسيين فرنسي ولاتيني "هومانوس **Humanus**" وصار لفظ الإنسان هومانوس، منذ القرن الثامن عشر الميلادي لفظا جامعا لكل لغات أوروبا.

5. الإنسان في الثقافة اليهودية:

تنظر الديانة اليهودية للإنسان على أساس الانتماء للدين اليهودي من عدمه، بناء على النصوص التي استلهموها من العهد القديم، فالناس في النص المقدس اليهودي أصناف، منهم اليهود الذين اختارهم الله من سلالة الأنبياء فلا ريب في أنهم سوف يحتلون هرم التشريف وقمة الرعاية من الله خالقهم على حد زعمهم.
أما بقية الأجناس فقد خلقت لمساعدة الجنس اليهودي على استكمال رسالة الله في الأرض والتي اختار اليهود ليضطلعوا بها مانحا إياهم جميع القدرات ومسخر لهم كل مكونات الدنيا بما في ذلك السلالات البشرية الأخرى.

ومن هذا التمثيل الحاصل في المعتقدات اليهودية نتج ما يعرف في التاريخ الديني لليهود ولبني إسرائيل ما يعرف بشعب الله المختار الذي فضله ومكنه على سائر الخلق. بل وتوعد الأجناس الأخرى المنافسة والرافضة للإرادة الإلهية القاضية بالتمكين لليهود "بني إسرائيل" بالوعيد الصعب والموارد القاسية التي تنتظرهم في الدنيا والآخرة على حد سواء.

وتقر الشريعة اليهودية بأصل الإنسان الواحد مهما اختلفت ألوانهم كما تقر بنفس الحقوق والواجبات بينهم وهناك آية في الكتاب المقدس تقول: "لا أخذ بالوجوه"؛ أي لا ينبغي أن يظهر المرء أي محاباة في موقفه من الآخرين، ولا أي مراعاة للبعض لأنهم أغنياء أو ذوو نفوذ، وإنما الاعتبار لكل الناس من جهة أنهم بشر..
وورد عن النبي موسى عليه السلام قوله في الكتاب المقدس: "الرب إلهكم هو إله الآلهة ورب الأرباب الإله العظيم الجبار المهيب الذي لا يأخذ بالوجوه"؛ فعلى القضاة والحكام والمسؤولين عن الشعب ألا يظهر المحاباة، بل يجب عليهم أن يحكموا بالعدل "الصغير كالكبير تسمعون"²

رابعا / الأنسنة في بيئتها الأوروبية

1. عصر التنوير

إن الحديث عن الإصلاح الديني¹ لا يتضح صورة دون الحديث عن حركة التنوير الثقافية والفكرية والسياسية التي رافقته منذ القرن الرابع عشر الميلادي إلى القرن السابع عشر، في أغلب أقطار أوروبا، كإيطاليا

1 - محمد عطا أبو سمعان، منزلة الإنسان ووجوده في المذاهب الفكرية المعاصرة، صفحة 53-54. بتصرف

2 - سفر التثنية 10: 17).

وفرنسا وبلجيكا وألمانيا وإنجلترا ثم انتشرت في بقية أجزاء القارة، التي كانت متعطشة للتغيير والبحث عن الجديد. لقد كان لانتشار صناعة الورق والطباعة وتبلور الجراءة على نقد النص الديني دورا بارزا في اكتمال رؤية هؤلاء الأعلام الذين قادوا حركة التنوير لمعالم طريق الإصلاح، وصارت تقدم نمطا واحدا للذوق الإنساني في الفن والأدب والجمال والمسرح والعمارة والنحت وما إلى ذلك، انتهت بإحياء الآداب اللاتينية القديمة والانكباب على دراسة الفلسفة الإغريقية وانتعاش الحركة الثقافية واللغات المحلية والعودة للاستثمار في المصادر الكلاسيكية الرومانية والهللينية، في شتى المجالات المعرفية.

لقد أنتج عصر التنوير أفكارا وضعية وعقلانية كثيرة وأهم عدد من الثورات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أسفرت عن قيام الدول الحديثة، ارتكزت على تنظيمات بيروقراطية جديدة، وجيش حديث كمؤسسة قوية ومتمتعة باستقلال نسبي عن السلطة التنفيذية، وساد جو من العقلنة في التنظيم، كما سادت أنظمة سياسية بديلة عن أنظمة القرون الوسطى، وأجمل ما صنعته أن استطاعت أن تنتزع القداسة عن سلطة الملوك ورسمت فواصل ثابتة بين الدين والدولة، واستطاع رواد الإصلاح طرح أفكارهم بكل جرأة ومواجهة تعاليم الكنيسة الفاسدة كما رتن لوثر الذي كتب " أنت لا تستطيع أن تقبل كُلاً من الإنجيل

1 - ظهرت حركة الإصلاح الديني في أوروبا خلال القرنين 15 و 16 تزعمها رجال دين أوروبيون وقساوسة كانوا متأثرين بأفكار الحركة الإنسانية، قدم هؤلاء انتقادات أساسية للكنيسة المسيحية وطالبوا بإصلاحات دينية تواكب التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، التي تشهدها القارة في تلك الفترة.

ومن أبرز الدوافع التي كانت خلف هذه الحركة انتشار ظاهرة بيع صكوك الغفران للعامة، من طرف الكنيسة الكاثوليكية، خاصة للفقراء والطبقات المعتمدة التي كان عليها واجب الطاعة والامتثال للكنيسة وتعاليمها.

وقد بنى الرافضون انتقاداتهم للكنيسة كون أفكارها وأعمالها بعيدة عن روح الديانة المسيحية وتتناقض مع القيم التي يدعو إليها الكتاب المقدس " الإنجيل"، وكان المصلح الديني إيزازم أحد الوجوه البارزة التي عارضت الفكر الكنسي وممارسات الكنيسة وتعرض من أجل ذلك للاعتقال والمحاكمة والاعدام بتهمة الهرطقة والخروج عن تعاليم الدين.

وقاد مارتين لوثر في ألمانيا حركة معارضة للكنيسة الكاثوليكية في روما بعدما وقف على انحرفاتها وانغماسها في حياة الترف والبدخ والمجون، وطالب المجتمع الغربي بالرجوع إلى الكتاب المقدس الصحيح واعترض على بيع صكوك الغفران للناس وتحولت أفكار لوثر إلى شرارة جامحة قام بها الفلاحون سنة 1542 لكن لوثر رفض العنف الثوري.

وعلى دربه سار الرافضون للسياسات الكنسية في سويسرا خلف زوينغلي وأشعلوا ثورة عارمة لكنهم اندحروا في معركة كابال سنة 1531 وقتل زعيمها.

واستفاد من الحراك السابق جون كالفن الذي كانت حركته أكثر تنظيم حيث جمع أفكاره الإصلاحية في كتاب سماه "مبادئ الدين المسيحي" تضمن إعطاء الأولوية للكتاب المقدس، ورفض فلسفة الغفران، وساهم في وضع معالم دولة جديدة تكون فيها السلطة لمجموعة من المتنورين الدينيين.

لم تقف الكنيسة الكاثوليكية موقف المتفرج من انتشار الفكر الثوري والدعاوى للقضاء على هيمنتها فقد قامت بقمع حركات الإصلاح الديني، وقامت بصد أفكار المصلحين ودعواتهم والرد عليها من خلال عقد مجموعة من المؤتمرات الدينية التي اصطلح على تسميتها بالجامع منها مجمع ترانت: الذي انعقد سنة 1545م وأكد على استمرار العمل بنصوص الإنجيل وصكوك الغفران.

وأُسست الكنيسة "منظمة اليسوعيين" سنة 1534 من طرف أغناطيوس دولوبولا ضمت مثقفين ونخب دافعت عن البابا والكنيسة وياشرت في القيام بالتبشير الديني، والدعوة لتكفير المصلحين

والعقل فأحدهما يجب أن يفسح الطريق للآخر ومنه كذلك قوله: "إنَّ كلَّ آيات عقيدتنا المسيحية التي كشفَ لنا اللهُ عنها في كلمته أمام العقل مستحيلةٌ تماماً ومنافيةٌ للمعقول وزائفةٌ." ¹

2. فولتير أيقونة الأنسنة

ولد فولتير "فرانسوا ماري أرويه" في مدينة باريس سنة 1694، وكان الأخ الأصغر لخمسة إخوة، كان أبوه يعمل موثقاً وأمه ماري مارجريت دومارت من إحدى بيوت النبالة الفرنسية، تلقى تعليمه في المدارس اليسوعية القائمة آنذاك، حيث درس اللغة الإسبانية والإنجليزية، وبعد ما بلغ سن الشباب اشتغل بعد تخرجه كاتباً ومؤلفاً في مجال الأدب، مخالفاً بذلك رغبة أبيه الذي كان يريد منه أن يصبح محامياً. ولكن فولتير أخفى هذا الميل عن أبيه، فكان يذهب لباريس لتأليف الشعر وكتابة الأدب والخوض في مجالس الشعراء والفلاسفة، ورغم قيام أبيه بإرساله خارج العاصمة لدراسة القانون كما كان يريد إلا أن فولتير استمر في كتابة المقالات والدراسات التاريخية والشعر والأدب.

توسط له والده بعد ذلك ليشتغل كاتباً في السفارة الفرنسية في هولندا، لكنه وقع في غرام إحدى اللاجئات وذاع صيته بها وصار حديث الخاص العام، مما تسبب في نقمة والده عليه واضطر مجدداً ليتدخل لإنقاذ شرف العائلة من مغامرات فولتير الطائش، واستطاع أن يخرج مجدداً من هذه الوضعية بمشقة. لقد كانت أغلب سنوات فولتير الأولى اضطراباً ومراهقة مجنونة وصراعاً وتهجماً على الحكومة و الكنيسة الكاثوليكية، فسجن ونفي مرات عديدة، وقد دخل في إحدى حلقات الصراع بين الكنيسة والمعارضة بعدما ساند أحد النبلاء فكلفته تلك المواقف السجن بالباستيل لمدة 11 شهر وبالسجن كتب مسرحيته التي تحمل عنوان "أوديب" فلاقت نجاحاً باهراً.

اتخذ "فولتير" هذا الاسم سنة 1718 بوصفه اسم شهرة بعدما قلب حروف اسم "القصر الريفي العائلي" الذي كانت تملكه أسرته والمسمى "آرفولت" **Airvault** وصار اسمه منذ ذلك الحين فولتير، وهذا يعني له بداية عهد جديد من التحرر من الماضي وقيود العائلة، ووالده الذي كان يريد منه أن يكون نسخة لرمز أرستقراطي نخبوي.

اتسمت شخصية فولتير بالقوة وحضور البديهة والسرعة وحدة النظر والصرامة والطرافة مما جعلته منبوذاً من أقرانه في ذلك الوقت ²

1 - وول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة عبد الحميد يونس، الجزء 23، طبعة الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، ص 56

2- تعود الحادثة لقيام فولتير باهانة الشاب النبيل فقامت أسرته الأرستقراطية بشراء - lettre de cachet وهو مرسوم موقع من ملك فرنسا يمنح حق حامله ان يفعل ما يشاء ضد خصومه، ولا يمكن لهم استئناف الحكم الذي جاء فيه. وهو نوع من الوثائق التي كان يشتريها أفراد طبقة النبلاء الأثرياء للتخلص من أعدائهم، حيث استخدمت أسرة روهان هذه الضمانة في بداية الأمر للزج بفولتير في سجن الباستيل، ثم قامت بنفيه خارج البلاد دون محاكمة عادلة.

لقد كان فولتير نفسه شديد الكراهية للنبلاء والارستقراطيين خاصة بعد حادثة الشاب النبيل الفرنسي كافليه دي روهان التي وقعت له سنة 1725.

وكان نفيه إلى بريطانيا مفيدا له حيث عاين لمدة عامين¹، تجارب البلد وتأثر بالنظام البريطاني الملكي الدستوري مقارنةً بالنظام الفرنسي الملكي المطلق، وكذلك بدعم الدولة لحرية التعبير عن الرأي وحرية العقيدة. كما اطلع على أعمال شكسبير والدراما الإنجليزية عموما وبعد ثلاث سنوات في المنفى، عاد فولتير إلى باريس وقام بنشر آرائه حول الموقف البريطاني من الحكومة ومن الأدب ومن العقيدة في صورة مجموعة من المقالات تحت عنوان: **Lettres philosophiques sur les Anglais (Philosophical letters on the English)** لكنها لاقت معارضة شديدة وأحرقت واضطر فولتير إلى مغادرة فرنسا مجددا.

وكان فولتير يلجأ أحيانا للكتابة السخرية للنيل من خصومه مثلما كان يكتب شكسبير في قالب تحكيمي هادف فكتب مقالا بعنوان (**Diatribes of Doctor Akakia**) كله سخرية واستهتار.

وفي سنة 1758 كتب روايته القصيرة **Candide, l'Optimisme** أو كانديد التفاؤل، التي يسخر فيها من أحد الفلاسفة الذي قال بحتمية التفاؤل..

ويذكر أن فولتير كان كتب عددا كبيرا من الرسائل قدرها بعضهم بنحو 20000² تنوعت فيها أساليبه في الكتابة بين النقد والسخرية والتوجيه والإيحاء. وبالرغم من ميوله الإنساني الكبير ومعاداة الكنيسة.

وفي شهر فيفري من سنة 1778، حضر فولتير إلى باريس ليشهد افتتاح آخر أعماله التراجيدية والمتمثلة في مسرحية **Irène**. لكن سنه وعجزه على المواكبة لم يسمح له بمواصلة درب المغامرة والمعارضة السياسية، فكتب: "أنا الآن على شفا الموت وأنا أعبد الله، وأحب أصدقائي، ولا أكره أعدائي، وأمقت الخرافات." ومات في 30 ماي 1778، وحينما كان في الاحتضار طلب منه أحد القساوسة أن يبرأ من كيد شيطانه ويعود إلى إيمانه بالله، فقال له " لا وقت لدي الآن لأكتسب المزيد من العداوات³.

ومنعت الكنيسة الكاثوليكية دفنه وفق ما تنص عليه الشعائر آنذاك وفي 1791 اعتبرته الجمعية الوطنية الفرنسية، أحد أبرز رجال فرنسا الذين دافعوا عن الإنسان وكرسوا قيم الأنسنة في أوروبا وقاموا باستعادة رفاته ودفنها في مقبرة البانتويون حيث يرقد عظماء الأمة الفرنسية.

كانت وفاته قبل 11 سنة من قيام الثورة الفرنسية التي حققت أجزاء كبيرة مما كان يحلم به فولتير في تغيير المنظومة الدينية والسياسية وتكريس الحرية والقضاء على الطبقة المقيتة التي تصنف الناس حسب ما يكتنزون من أموال وثروات لا وفق ما يملكون من مؤهلات علمية وأدبية وقدرات عقلية.

1- Faguet, Emile. Voltaire, 1694-1778, Lecène Collection Paris.1895. P17

2 - Faguet, Emile, opcit, p215

3- Faguet, Emile, opcit, p73.

وكان فولتير خلافا لما تروجه الكنيسة عنه يؤمن بالدين وأن للكون إله ربما شوّهه الكنسيون حيث يروى عنه قوله " إذا كان الله غير موجود، فسيكون من الضروري أن نختلق نحن واحدا¹" ويعتقد أن الكون قائم على العقل واحترام الطبيعة، وكانت الكنيسة تبادله كرها شديدا وتعدّه مصدر إزعاج كبير لها، وبعد وفاته كتب أحد القساوسة "أخيرا رحل عن العالم أكبر الأوغاد.²"

وكان كثيرا ما يتساءل: " ما الإيمان؟" هل هو أن نؤمن بما نستطيع أن نراه واضحا أمام أعيننا؟ لا، فمن الواضح تماما لعقلي إنه من الضروري وجود كيان خالد عالي القدر عاقل وذكي، فالأمر عندي لا علاقة له بالإيمان، ولكنه مرتبط بالعقل، فموجب العقل التام عند فولتير يؤدي إلى الإيمان الحقيقي بوجود الخالق، ولا حاجة لتعاليم الكنيسة لكي تفرض قوالبها المزيفة على الناس.

ساهم فولتير بكتاباته الهادفة في جهود حركة التنوير والبعث وكان من أبرز مؤلفاته "القاموس الفلسفي" الذي نشر في سنة 1764، حيث يعد من أشهر المنشورات في عصر التنوير، ساعدت في نشر أفكار التنوير في جميع أنحاء أوروبا وخارجها، إضافة إلى كتابه "رسائل عن الأمة الإنجليزية" الذي نشر عام 1733، ويمجد فيه التجربة السياسية الرائدة التي كانت في إنجلترا والقائمة على أساس حرية التعبير والفصل بين السلطات السياسية والدينية، وتعد هذه الأعمال بالإضافة إلى أعمال أخرى منها موسوعة "أونسيكلوبيدي" **Encyclopédie** التي ضمت 35 مجلدا ونشرت في الفترة ما بين 1751 و1772، والتي ساهم في إنجازها أكثر من مائة وخمسين عالما متخصصا على رأسهم دونيس ديدرو 1713-1784 وضمت التعريف بكل العلوم المتداولة في تلك الفترة وما توصل إليه العلم آنذاك، في التاريخ والجغرافيا والفلسفة والأدب والفنون، وكانت من أقواله الموجهة للشباب دعوته لهم التحرر من التفكير الكلاسيكي والبحث والتأمل والاستنتاج. كما أضيف لهذه الأعمال كذلك كتابات جون جاك روسو "البحث في منشأ وأسس عدم المساواة" و"العقد الاجتماعي" الذي نال شهرة كبيرة فضلا عن "روح القوانين" لمونتيسكو 1748 و"نظرية المشاعر الأخلاقية" لأدم سميث الذي نشره عام 1759 وثروة الأمم المنشور عام 1776، وقد لعبت هذه التأليف دورا جوهريا في إلهاب نار الثورة وإسقاط الأنظمة التوليتارية³.

تأثر به رواد النهضة ودعاة الأنسنة كثيرا منهم فيكتور هيجو 1882-1886 والأديب لامارتين الذي قال فيه لقد كان فذا وشخصية حية أنجبها ذلك القرن، بل هو من أنجب ذلك القرن⁴.

3. جون جاك روسو .

1 - Si Dieu n'existait pas, il faudrait l'inventer

2- Faguet, Emile, opcit, p73.

3 - ياسر العلوي معجم، المرجع السابق، ص27.

4- Voltaire, quel que soit le nom dont on le nomme C'est un cycle vivant, c'est un siècle fait homme ! » Alphonse de LAMARTINE (1790-1869), *Première méditation* (1820)

ولد جون جاك روسو في جنيف سنة 1712 وكان أبوه ساعاتي فقير لم ينل شيئا من ميراث أبيه المتوفى حديثا وكانت أمه ابنة القس بونار وكانت ماهرة وجميلة¹، مثلما يصفها في كتاباته ..

انتقل روسو إلى لندن فارا من سلطة بلاده سنة 1766 ممثلة في الكنيسة والفلاسفة الكلاسيكيين في فرنسا وهولندا و جنيف حيث ضيقوا عليه واتهموه بالهرطقة والطيش، وفي لندن كتب "الاعترافات" وظل يتنقل بين قرى إنجلترا ومدنها مطاردا بالإشاعات من مكان لآخر، حتى عاد الى باريس حيث سمح له بالإقامة شريطة ان يلتزم الموادعة، لكنه اختار العمل في الموسيقى وتأليف النوتات والسهر مع علية القوم ثم انعزل في كوخ بإحدى ضواحي ارمنونفيل حيث مات هناك فجأة دون أسباب واضحة، وقال بعضهم قد مات منتحرا وقيل مات بنوبة صرع، بسبب إحساسه بالفراغ والتهميش لأفكاره ورسائله.

وقبل أن يباشر روسو تأليف مذكراته أو الاعترافات كتب: " إنني مقدم على عمل لم يسبق أن عمله شخص قبلي وهذا الإنسان الذي سيعمل هذا الشيء هو أنا، أنا وحدي فإنني اعرف مشاعر قلبي كما اعرف البشر ولست أراني خلقت على شاكلة غيري ممن رأيت، بل وإنني خلقت وليس لي نظير في هذا الوجود، فإذا انطلقت آخر صيحات بوق البعث وعندما يقدر لي أن أقف أمام الحاكم العادل وهذا الكتاب بين يدي، لسوف أقول هذا ما فعلت وما فكرت، وما كنت، لقد رويت في كتابي الطيب والخبيث كما كنت دون تحريف أو تزيف"².

ويعد الفلاسفة الإنسانيون أن هذا العمل الذي أقدم عليه روسو كان يهدف إلى إعلان القطيعة بين زمن سيطرت فيه الكنيسة على أحاسيس الناس ودفعتهم إلى الكبت والصمت والإذعان وبين زمن جديد يبرز فيه الإنسان ككائن جوهري يصيب ويخطئ يحلم ويتوق للسعادة والحياة الحرة، تتجسد فيه فطرة الفرد ككيان مستقل عن البيئة والمجتمع والسلطة.

ويعد كتاب روسو "اعترافات" من أكثر الكتب انتشارا في أوروبا، قال فيه صاحب هذه الترجمة "كان يجب أن يترجم إلى لغتنا " العربية" منذ 100 سنة من قبل لقد تغيرت أوروبا كثيرا بأفكار هذا الأديب ونعزو كل التغيرات التي حدثت في القارة إلى أفكاره ومبادئه"³ ويقول في إحدى اعترافاته " إن الطبيعة حسنة والإنسان طيب ولكنهما يفسدان بالمجتمع السيئ" وفي هذا نقمة واضحة على النظم الاجتماعية السائدة في ذلك الوقت ودعوة مبطنة للثورة عليها وتغييرها.

لقد انصرف الأدباء والنحاة والفلاسفة والمصلحون في كل بلاد الدنيا إلى مطالعة كتابات روسو سواء الاعترافات أو "العقد الاجتماعي" و"إميل" و"هيلويز الجديدة" لكن ما وجدوه في "الاعترافات" أشياء أكبر وقضايا مذهلة، وأكثر قوة سياسيا واجتماعيا وأخلاقيا، لقد كانت الاعترافات أول عمل أدبي تكتب لصاحبها الخلود لأنه كشف عن نفسه فيها بصدق دون زيف او تستر..

1 - جون جاك روسو اعترافات جون جاك روسو ترجمة حلمي مراد دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان 1998.

2 - جون جاك روسو المرجع السابق.

3 - جون جاك روسو المرجع السابق. ص 09

لقد نجحت حركة التنوير والإصلاح الديني في فرنسا بعد 1789 بتجسيد أفكار الدولة المدنية الحديثة التي يشارك فيها المجتمع وهي أحد أبرز إسهامات جان جاك روسو، مات ولم يشهد ميلادها على أرض الواقع.

4. موقف الكنيسة

كانت النهضة الأوروبية الحديثة تمثل المعول الأخير الذي دكّ بنيان الكنيسة في أوروبا، ويعد هذا الحدث بمثابة انتصار العقل البشري على الهمجية الدينية التي قادتها الكنيسة خلال القرون الوسطى وقد كان موقف الكنيسة من العلم والعلماء وتقييدها للعقل ومحاربتها التفكير الخارج إطار الكتاب المقدس من أبرز ما طبع عصور التنوير والنهضة وكان من أبرز نتائج هذه الحرب التي خرجت منها الكنيسة فاقدة لتأثيرها المباشر على الوجدان الأوروبي دون أدنى شك، توجّه العالم المسيحي، بشكل كبير إلى الإلحاد والتخلي عن العقائد الموروثة، وفتح الباب على مصراعيه للطعن في الدين والعقائد والقيم الثابتة والأخلاق، ويمكن حصر موقف الكنيسة في ما يلي:.

الزعم بأن الكتاب المقدس يتضمّن كل أنواع العلوم التي يحتاجها الناس سواء أكانت علوم دين أم علوم دُنيا "وأنّ أساس كلِّ علمٍ.
القول بأن الكتاب المقدس وتعاليد الكنيسة تحتوي من المعارف بالمقدار الذي يصلح للبشر فلا حاجة لهم بالمزيد.

التصريح بأن كل النصوص المسيحية يجب الإيمان بها حتى وإن خالفت العقل.
التصدي بالعنف لكل مخالف كقيام مجموعة من رهبان الكنيسة المسيحية في عام 415م بقتل "هيباثيا" ابنة "نيون السكندري" الذي كان مُديراً لمكتبة الإسكندرية آنذاك¹..
مقاومة نظريات علم الفلك الجديدة التي جاء بها "كوبرنيكوس" و"جاليليو جاليلي"، وقد كتب الراهب "فروماندوس"، مقالة يلعن فيها هذه النظريات المخالفة للدين.
إقامة محاكم التفتيش والقيام بعمليات إحراق وإعدامٍ جماعيّةٍ وقتلٍ للعلماء والمفكرين المعارضين. وغيرها من وسائل القمع والإرهاب الفكري.

خامسا / الأئسنة في بلاد المشرق.

إن تصفح واقع المشرق العربي والإسلامي وواقع الغرب ليمكننا من ملاحظة أن قيم المشترك الإنساني عند الشخصيات الإصلاحية في النهضة الأوروبية تختلف جذريا عنها في النهضة العربية الاسلامية في العصر الحديث، وهذا ليس من باب المقارنة الكلاسيكية التي نبهت لها ورقة الملتقى بقدر ما هي حقيقة واقعة، فالتنويريون في فرنسا

1 - ييوني، إنريكو، الإلحاد وأسبابه "الصفحة السوداء للكنيسة" ترجمة د. زينب عبد العزيز، دار الكتاب العربي، القاهرة،

وأوروبا خلال القرن الثامن عشر كانوا مثاليين في دعوتهم الإصلاحية لكنهم كانوا واقعيين في الذهاب إليها خلافاً لنظرائهم في مصر خلال القرن التاسع عشر أمثال رفاة الطهطاوي ومنظرو النهضة العربية خارج مصر كذلك. ولم تكن الأنسنة معروفة كمصطلح سياسي وفكري في البلاد العربية سوى في المغرب أو في المشارق، فالنخبة المغاربية مثلاً لم تنتبه ربما لهذا المصطلح الوافد مع الحضارة الغربية، لأنها لم تكن ترى له مكاناً وأهمية في تاريخ المنطقة، فمن خلال قراءة عابرة لبعض ما كتبه الشيوخ المحافظون في الجزائر مثلاً، خلال فترة الثورة الفرنسية، نلاحظ غياباً تاماً لأي حركية تغييرية يطمحون إليها، هل كان الوضع مقبولاً بما فيه الكفاية لكي لا يدفعهم للتغيير؟؟ أم أن فروض الطاعة والولاء تلزمهم بالتمسك بزمام السلطة من باب الولاء والبراء؟؟ أم أن قاعدة "تقليد الكفار" تحرم عليهم شرعاً الالتفات إلى ما هم فيه من شؤون التغيير والتطور؟؟ ومهما كانت الأسباب فقد كتب الشيخ ابن سحنون الراشدي عن هذا الحدث البارز الذي هز كيان العالم المتمثل في الثورة الفرنسية، بقوله "والله المستول أن يبقى بينهم كيدهم ويشغلهم بأنفسهم آمين؟؟؟"¹، ويشبه هذا التوصيف ما ذكره ابن العنابي أحد شيوخ الفقه الحنفي في الجزائر قبل الاحتلال حيث قال: "نحن في غنى عنه"² ويكاد يجمع التونسيون والمغاربية حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ببور الفكر الجديد الذي بدأ يسوس أوروبا كالناصرى والسلاوي واعتبروا مطلب الحرية شأن لا يعينهم وهي من وضع الزنادقة³.

هل كانت الحرية كقيمة إنسانية ضحية للتعلم والعلو والقصور في فهم التحولات الاجتماعية والإيديولوجية الحاصلة في أوروبا والعالم آنذاك؟؟ كيف يمكن تصنيف أقوال هؤلاء حينما يقولون أن الحرية من وضع الزنادقة، والتراث الإسلامي يعج بشتى أصناف البراهين والأدلة والحجج التي تمجد الحرية الفردية وتدعو لصيانتها؟؟.

وقد عبر أحد وجهاء الدولة العثمانية⁴ عن رأيه في موضوع الإصلاح والحداثة والمسعى لافتكاك الأوربيين حريتهم من أنظمة القرون الوسطى البالية بقوله: "إن جان جاك روسو وغيره من مشاهير الزنادقة والدهريين قد قاموا بتأليف الكتب الإلحادية المفسدة في سب الأنبياء وأبطال الأديان وذم الملوك والأشراف... ثم حرصوا على الإلحاد ونبد الدين والشرع والمذاهب"⁵.

1 - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، فقيه وأديب ومؤرخ، تولى الكتابة لدى محمد الكبير باي الغرب الجزائري، من المدافعين عن الدولة العثمانية، له كتاب "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" لم يتطرق فيه لأحداث الثورة الفرنسية توفي سنة 1796.

2 - محمد بن محمود ابن العنابي، السعي المحمود في نظام الجنود، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص204.

3 - أبو العباس السلاوي، الإستقصى لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب المغربي، الدار البيضاء، 1956، ص114.

4 - عاطف أفندي باشا رئيس كتاب ديوان السلطان سليم الثالث.

5 - خوري، رثيف، الفكر العربي الحديث، أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي، ط1، بيروت، دار المكشوف،

1943، ص95.

وقد ساهمت هذه النخب المحافظة على امتداد 100 سنة من النفوذ قرب مواقع صنع القرار في تغليب رؤية المقاومة للقيم الحداثية والإنسانية مما ساعد في بروز فئة أخرى من المفكرين العرب الذين اتصلوا تماما بتأثير من دوائر صناعة الرأي في الغرب من موقف الشرق من قضايا الحرية وقيم الغرب فاحتضنوها بقوة ودعوا إلى التمسك بدبائبيها والسير على أثر المصلحين الأوروبيين واقتفاء أثرهم.

ومنذ ذلك الوقت بدأت الثنائية القطبية في البروز وتميزت النخب وانقسمت وتشتتت رؤيتها للآخر وقيمها سواء ما تعلق منها بالثورة الفرنسية وفلسفة التنوير، أو الاستعمار الغربي ومقاومته والسعي للتحرر وبناء الدولة، من حمدان خوجة الجزائري، والأمير عبد القادر، ومحمد بيرم الخامس، وخير الدين التونسي، وابن أبي الضياف وعبد الله السنوسي، والنخبوي حسونة الدغيس وغيرهم.

ولا ننسى في خضم ذلك الحديث عن المؤثرات الفكرية التي ساهمت هي الأخرى في رسم هذا المشهد الفكري، فقد كان التأثير كبيرا من الدولة العثمانية التي شكلت مركز فكريا وحضاريا إسلاميا، ومن مصر التي شهدت حملة نابليون بونابرت وإرهاصات العصرية والحداثة، وكذا تأثر الطرق الدينية المحافظة التي ألفت ما يجعبتها من أفكار لإصلاح الوضع المحلي المتهالك، سواء بالدعوة للتجديد في الدين كما فعلت الحركة الوهابية، أو الحركة الشوكانية¹ والسنوسية². وفي العراق حركة شهاب الدين الألوسي 1802-1854 وفي الهند حركة أحمد خان 1817-1898 ودعوة جمال الدين الأفغاني وتلاميذه من بعده، الذين أثروا خزنة التراث العربي بنفائس التعاريف والمجادلات والمواظع دون حسم في مسألة النهضة العربية وكيفية الخروج من المأزق الحداثي والقيم المرتبطة به: "الحرية" "فصل الدين عن الدولة" "نظام الحكم المدني"³. "حقوق الإنسان"، وغيرها من القيم.

1. الطهطاوي على خطى الأنسنة الفرنسية.

1 - الحركة الشوكانية: جاءت هذه الحركة كرد فعل على الحركة الوهابية، تنسب للشيخ محمد بن علي الشوكاني¹ 1760-1834 اليمني تقوم على جملة من المبادئ وهي على النحو التالي: الإعتماد على القرآن والسنة في الأحكام الدينية، تنقية الدين الإسلامي من البدع والخرافات، رفض التقليد وفتح باب الاجتهاد، وقد جمع الشوكاني الأحاديث الصحيحة في كتابه: "نيل الأوتار شرح منقى الأخبار من أحاديث سيد معظم الأخبار" واعتمد عليها لدعم آرائه وأفكاره. الدعوة للإصلاح الاجتماعي.

2 - يعتبر محمد بن علي السنوسي 1760-1872 مؤسس هذه الحركة الإصلاحية، نادى مثل غيره من المفكرين بمجموعة من المبادئ التي يمكننا بفضلها التخلص من الفساد وهي على النحو التالي :

العودة بالإسلام إلى صفائه ونقاؤه الأول. واعتبار الكتاب والسنة مصدرَي الشريعة الإسلامية رفض التقليد وفتح باب الاجتهاد لكل مقتدر، تنقية الدين الإسلامي مما علق عليه من بدع وخرافات، على امتداد عصور التخلف ودعوة الناس للإيمان بفكرة المهدي المنتظر وهي الفكرة التي تميزت بها الحركة السنوسية عن غيرها من الحركات الإصلاحية.

3- شكل موضوع الدولة الحديثة في فكر الحركة الإصلاحية احد اهم المواضيع البحثية التي أسالت حولها الكثير من الحبر، بين من يرى أن فكرة الدولة الحديثة بأركانها القائمة على المفاهيم الحداثية لم تكن موجودة في مخيلة حركات الإصلاح في البلاد الإسلامية خاصة المغرب العربي، فعشية تعرضه للاستعمار الغربي الحديث لم تجد النخب الدينية والإصلاحية مرجعية تستند إليها في صراعها مع الاحتلال الفرنسي بعدما فقدت المكونات الدينية تأثيرها في المجتمع بفقد مؤسسات الأوقاف ومؤسسة جهاز الحكم الذي كان دوما حريصا على تنفيذ السياسة الدينية ليستمر في الحصول على شرعيته، فقدت المجموعة الدينية مرجعيتها رغم ما لعبته من أدوار في مقاومة الاستعمار الفرنسي انظر المنصف وناس، الدولة والمسألة الثقافية في المغرب العربي، سيراس للنشر، تونس، 1995، ص 124.

لقد كانت تجربة محمد علي باشا في بناء مصر الحديثة نهضة نخبوية لم تشارك فيها الجماهير، واعتمدت على الجيش أكثر مما اعتمدت على الشعب، فرفاعة الطهطاوي نفسه كان جنرالاً في القلعة، "يرتدي الزي العسكري ويقوم بالعمل الثقافي" ويضيف حسن حنفي المفكر المصري المعاصر " ربما يصعب حتى الآن في مصر والوطن العربي تطهير مفهوم العلمانية مما علق به من شبهات، أنه مرتبط بالغرب وأنها نقيض للدين، وأنها أقرب إلى الكفر وإنكار الوحي".

ولد رفاعة رافع الطهطاوي في سنة 1801م في محافظة سوهاج بصعيد مصر، ونسب إلى قريته، وقد نشأ في أسرة كريمة الأصل شريفة النسب، وفي القرية درس في الكتاب علوم الشرع والحساب الأولية فحفظ القرآن الكريم، ثم رجع إلى موطنه طهطا بعد أن توفي والده. ووجد من أسرة أحواله اهتماما كبيرا حيث كانت زاخرة بالشيخ والعلماء فحفظ على أيديهم المتون التي كانت متداولة في هذا العصر، وقرأ عليهم شيئاً من الفقه والنحو. وفي السادسة عشرة من عمره رحل للقاهرة للدراسة بالأزهر، وبعدها بخمس سنوات تولى التدريس فيه وتوثقت صلته بمشايخه، وظل رفاعة يدرّس بالأزهر لمدة عامين، ثم قضى بعدهما عامين إماماً وواعظاً في الجيش الذي أسّسه محمد علي، وفي سنة 1826 أرسل في سفر إلى فرنسا ضمن بعثة أرسلها محمد علي على متن السفينة الحربية الفرنسية "لاترويت" لدراسة العلوم الحديثة.. وبعد سنوات خمس حافلة، أدى رفاعة امتحان الترجمة، وقدم مخطوطة كتابه الذي نال بعد ذلك شهرة واسعة: تَحْلِيصُ الْإِبْرِيْزِ فِي تَلْخِيصِ بَارِيْزِ.

وفي سنة 1832م عاد الطهطاوي إلى مصر من بعثته، وفي سنة 1833 انتقل رفاعة الطهطاوي من مدرسة الطب إلى مدرسة الطبوجية "المدفعية" بمنطقة "طره" إحدى ضواحي القاهرة كي يعمل مترجماً للعلوم الهندسية والفنون العسكرية.

ويعتبر الطهطاوي أول منشئ لصحيفة "الأخبار" ثم "الوقائع المصرية" التي صدر عددها الأول في 03ديسمبر 1828م. وظل جهده يزيد وينمو ترجمةً، وتخطيطاً، وإشرافاً على التعليم والصحافة. فأنشأ أقساماً متخصصة لترجمة المواد الحديثة كالرياضيات والعلوم الطبيعية، والعلوم الإنسانية.

ومن أبرز الأعمال التي قام بها:

استصدار قرار تدريس العلوم والمعارف باللغة العربية.

إصدار جريدة الوقائع المصرية باللغة العربية بدلاً من اللغة التركية.

ترجمة الدستور الفرنسي.

كما ترجم ستة وعشرين كتاباً، في قضايا التمدن وعلم الاجتماع والتربية، أشهرها تخلص الإبريز، الذي أشاد فيه بالحرية الفردية وتجسيد الحياة النيابية الحقيقية حيث يصير الفرد حراً في اختيار من يحكمه، معتبراً هذا التحول حجر الأساس في أي نهضة عصرية¹.

وللطهطاوي مؤلفات مفيدة منها رسالة في الاجتهاد بعنوان القول السديد في الاجتهاد والتقليد، حاول فيها إبراز مكانة الاجتهاد وشروطه وضرورته لإخراج بلاد المسلمين مما هي فيه من الركود، ويرى المفكر محمد عمارة رحمه الله أن الطهطاوي لا يشك في مكانته الإصلاحية ودوره الريادي سوى المشككون ، فمن هم يا ترى أتباع الأفغاني وتلاميذ محمد عبده ؟؟ أليسوا هم تلاميذ الطهطاوي الذين حملوا فكره ونهضوا بفلسفته الإصلاحية؟؟

قضى الطهطاوي بقية أيامه في تنشئة الشباب وكتابة البرامج النافعة والتأليف المفيدة، منها أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل، مباحج الأبواب المصيرية في مناهج الآداب العصرية، والمرشد الأمين للبنات والبنين... ومغامرات تيليماك¹ وغيرها.

وبعد خمس سنوات قضاها الرافعي في باريس عاد لمصر لا ينكر من حضارة الغرب إلا ما رآه مخالفا للدين والملة، دون ترمت او جمود، عاش في باريس ولم ينقطع عن الفروض والسنن وتلاوة القرآن، وكان دوما يردد قول الشاعر²:

كل دين إن فاتك الاسلام فمحال لأنه أوهام.

توفي الطهطاوي سنة 1873 ودفن بمسقط رأسه..

عاصر الطهطاوي من الأعلام محمد بن علي الشوكاني، الشيخ حسن العطار، وأحمد خان، ومحمد عبده. إن كتاب المرشد الأمين للبنات والبنين في رأي المفكر العربي محمد عمارة ليس كتابا عاديا للتدريس إنه موسوعة أخلاقية وآداب توضح الحقوق والواجبات وترسم معالم المجتمع الواعي³.

دعا الطهطاوي للحرية الفردية، حرية سلوكية تقوم على حسن السلوك، وهي في قاموسه أن يفعل الناس المأذون شرعا وألا يكرهوا على فعل المحظور، والحرية قرينة المساواة، ومكارم الأخلاق، حرية التدين وحرية العقيدة والمذهب، بشرط ألا تخرج عن الدين، وحرية مدنية وهي حقوق العباد والأهالي الموجودين في البلد بعضهم مع بعض، وتأمين الدولة لكل أحد منهم، فالحرية هي الوسيلة العظمى لإسعاد الأهالي⁴،

1 - مغامرات تيليماك .. Les Aventures de Télémaque :

هي رواية مغامرات نُشرت عام 1699 ومؤلفة للتلاميذ الملكيين ، ولا سيما دوق بورغوندي ، نجل الدلفين ، الذي كان Fénelon هو المعلم .2. هذه الرواية ، ملحمة مشتركة ورسالة عن الأخلاق والسياسة ، أثارت كراهية عار فينلون في المحكمة وشهرته الفورية واللاحقة. وتعد رواية تيليماك من أشهر الروايات الغربية التي قوبلت بنجاح كبير لمدة قرنين من الزمن من عام 1699 إلى عام 1914 ، وهو أحد أكثر الكتب التي تمت إعادة نشرها مرات عديدة بلغات كثيرة نشرت أول مرة سنة 1699 دون موافقة مؤلفها فينلون. وترجمت خارج فرنسا إلى جميع لغات أوروبا وتوزيعها لتكون وسيلة من وسائل التعلم.

2 - حسين فوزي النجار، أعلام العرب رفاة الطهطاوي رائد فكر وإمام النهضة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر

1987. ص 82 .

3- علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987، ص.204

4 - محمد عمارة الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي دراسة وتحقيق محمد عمارة مكتبة الاسندرية 2010 ص151.

كما دعا لتحرير المرأة من الجهل والخرافات والعبودية فقد كانت نساء الاسلام في الزمن الأول على مستوى عال من العلم والمعرفة كحفصة وعائشة، والدعوة لحرمان المرأة من التعليم بدافع الغيرة عليها دعوة باطلة¹ استطاع الطهطاوي تمكين المرأة قبل قاسم أمين، وقد كان أجراً كثيراً منه على الرغم من أن الصورة النمطية أن قاسم أمين هو محرر المرأة، ولكن المشكلة أن مشروع الطهطاوي تعرض للتعطيم مثل غيره من المشاريع النهضوية. وكان يرى التمدن من جانبين تمدن معنوي وتمدن مادي، فأما التمدن المعنوي فتهذيب الأخلاق والآداب والفضائل والتمسك بها، وأما المادي فبالمنافع التي تعود بالثروة والغنى وتحسين أوضاع المجتمع².

كما كان الطهطاوي يرى في الدستور الفرنسي مثالا للذساتير الحية، ثم يتساءل كيف لهذا الدستور وهو ليس فيه ما في كتاب الله إلا أن الفرنجة حكموا بالعدل والإنصاف وعمروا الممالك؟؟³

ساهم الطهطاوي في بعث حركة الطباعة والنسر لأمهات الكتب العربية والإسلامية التراثية منها تفسير الفخر الرازي وخزانة الأدب ومقامات الحريري⁴

ومما يثلب على دعوة الطهطاوي أنه حصرها تحت جلباب السلطة كما يرى النقاد، حيث كان يرى أن رضا الوالي ضمان لنجاح الدعوة والحركة التي يصبو إليها⁵، ودافع عن الحكام حينما يرد على الغربيين الذين يتهمونهم بالاستبداد والشددة، فيقول أن ملوك الشرف مستمسكون بكتاب الله وشريعة نبيه.

و أعجب الطهطاوي بالمرأة الفرنسية وحسن تبعلها لزوجها وتربية الأبناء ومطلق الثقة التي كانت بين الزوج وزوجه إلا انه آخذ على الفرنسيات قلة عفاف الكثير منهن⁶.

والشرق في فكر الطهطاوي هو الشرق لا يتحول ولا يتبدل وعاطفة الطهطاوي للشرق ثابتة لا تتغير فهو متعاطف معه ومع الدولة العثمانية ويشيد بها وبما ينشر للرفع من قوتها ومعنوياتها، فقد نشر مرة رسالة لأحد الجنود الفرنسيين تطوع للحرب الى جانب الروس ضد الدولة العثمانية فيقول الجندي الفرنسي، و يعترف بقوة جيش الدولة العلية وبساله جنودها وحماستهم في القتال⁷.

2. قاسم أمين على خطى الطهطاوي

1 - محمد عمارة المرجع السابق، ص149.

2 - محمد عمارة المرجع السابق ص144

3 - حسين فوزي النجار، المرجع السابق. ص119.

4 - حسين فوزي النجار، أعلام العرب رفاة الطهطاوي رائد فكر وإمام النهضة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر 1987.

ص114.

5 - محمد عمارة المرجع السابق ص156.

6 - حسين فوزي النجار، المرجع السابق. ص95

7 - حسين فوزي النجار، المرجع السابق ص86

ولد قاسم أمين في 01 ديسمبر سنة 1863 بالإسكندرية لأب تركي وأم مصرية من صعيد مصر، كان والده "محمد بك أمين" قبل مجيئه إلى مصر واستقراره بها واليا على إقليم "كردستان"، وكان بعض أجداده تولى على السليمانية وهي مدينة عراقية كردية في معظمها من قبل السلطان العثماني، فلما نزحوا إلى مصر ظن بعض من كتبوا عنه أنه كردي الأصل.

تلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة "رأس التين" التي كانت تضم أبناء الطبقة الأرستقراطية، ثم انتقل مع أسرته إلى القاهرة، وسكن في حي "الحلمية" الأرستقراطي. حصل على التجهيزية الثانوية العامة، ثم التحق بمدرسة الحقوق والإدارة، ومنها حصل على "الليسانس" سنة 1881م وكان أول خريجها. عمل بعد تخرجه فترة قصيرة بالمحاماة، ثم سافر في بعثة دراسية إلى فرنسا، وهناك التحق بجامعة مونبلييه، وبعد دراسة استمرت أربع سنوات أنهى دراسته القانونية بتفوق سنة 1885م.، اتصل بجمال الدين الأفغاني، وكان "المترجم" الخاص بالإمام "محمد عبده" في باريس.

عاد قاسم أمين من فرنسا بعد أن قضى فيها أربعة سنوات يدرس بها واطلع على ما أنتجه المفكرون الفرنسيون وأعجب بالحرية السياسية التي ينعم بها الفرنسيون التي تسمح لكل كاتب أن يقول ما يشاء حيث يشاء، كان من المؤيدين للإمام محمد عبده في الإصلاح، ورأى أن الكثير من العادات الشائعة لم يكن أساسها الدين الإسلامي، وكتب في جريدة المؤيد تحت عناوين "أسباب ونتائج" أو "حكم ومواعظ". وكان قاسم قاضيا وكاتبا وأديبا فذا ومصالحا اجتماعيا، اشتهر بأنه زعيم الحركة النسائية في مصر كما اشتهر بدفاعه عن الحرية الاجتماعية وبدعوته لتحقيق العدالة وإنشائه الجامعة المصرية وبدعايته للتربية في سبيل النهضة القومية، ودعا لتحرير اللغة العربية من التكلف والسجع فقد كان أديبا مغوارا ولكن أحدا لم يتفق معه على التحرر من حركات الإعراب فماتت دعوته في رحم الكلمة.

كان قاسم أمين يرى أن تربية النساء هي أساس كل شيء، وتؤدي لإقامة المجتمع المصري الصالح وتخرج أجيالا صالحة من البنين والبنات، فعمل على تحرير المرأة المسلمة، وذاعت شهرته وتلقى بالمقابل هجوما كبيرا فخلطت دعوته بالدعوة بالانحلال والسفور¹.

أصدر سنة 1898 كتاب "أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ وتبعه بكتاب "تحرير المرأة" الذي تحدث فيه عن الحجاب وتعدد الزوجات والطلاق، وأثبت أن العزلة بين المرأة والرجل لم تكن أساسا من أسس الشريعة، وأن لتعدد الزوجات والطلاق حدودا يجب أن يتقيد بها الرجل بها، ثم دعا لتحرير المرأة لتخرج للمجتمع وتلم بشؤون الحياة.

وتعد قضية المرأة وتحريرها وسفورها من أكثر القضايا التي دارت حولها نقاشات كثيرة بين النخب العربية والإسلامية، في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، بفضل كتابات أحمد أمين، ويرى المفكر الجزائري مالك بن نبي أن مشكلة المرأة ليست بمفردها بل هي مشكلة المرأة والرجل معاً¹، مشكلة مجتمع ومشروع دولة لم تقم بعد. ووجهت له احتجاجات كثيرة وتقدم كثير من المفكرين بنقد لأطروحاته التحريرية للمرأة، فكتب قاسم محمد طلعت² بكتاب "فصل الخطاب في المرأة والحجاب" ومحمد فريد وجدي بكتاب "المرأة المسلمة"، لكن قاسم أمين لم يغير رؤيته فواصل كتاباته ورد عليهما بكتابه "المرأة الجديدة" عام 1901 رداً على ناقديه، فطالب بإقامة تشريع يكفل للمرأة حقوقها وبحقوق المرأة السياسية وأهداه لصديقه سعد زغلول. ولم يغير من انتمائه كأحد رجال الإصلاح المنتمين لمدرسة الإمام محمد عبده إيمانه بالمثل الغربية والدعوة إليها، وكان يحب الفنون ويعتقد أن الحياة مبنية على التسامح والسلام بين عناصر ومكونات المجتمع الدينية والسياسية والعرقية.

توفي في منزله بالقاهرة 23 أبريل عام 1908م وهو في الخامسة والأربعين من عمره، ورثاه عدد من الشعراء مثل حافظ إبراهيم وخليل مطران ونعاه الزعيم السياسي المصري سعد زغلول باشا .

سادساً/ خاتمة البحث

اصطدمت الأنسنة والحداثة العربية بجدار عازل بعد مرور زهاء 200 سنة من الحفر والتنقيب، وبدا بعد كل هذا الوقت أن إنزال قيام الأنسنة بحذافيرها على واقع الشرق غير قابل للتحقيق ومهمة شبه مستحيلة، ليس لخصوصيات الثقافة العربية والإسلامية التي لا يمكن عزلها وتحييدها ببساطة بل لاعتبارات أخرى كثيرة، فاللغة العربية هي وسيلة قراءة الإسلام وهي وعاء العلوم والمعارف جميعاً، وأداة التعبير والتواصل والتعبد ووسيلة التأثير في العقل والشعور، وهي الوسيلة الفريدة للإحساس بالذات، وأما الدين فكل الثقافات ترتبط بالأديان في تكوينها وتأثيرها في الناس، وأي ثقافة لا يمكن أن تخلو من معتقد غيبي، وإلا فإن مصيرها سلة المهملات.

ويرى المنتورون من الحداثيين أننا إذا أردنا أن نواكب الأنسنة والعصرنة والحداثة، فلننفع ذلك دون المساس بالقيم المحلية، فلا تعارض بين الثقافة العربية والمعاصرة، وأن من واجبنا القيام بقراءة متبصرة للتراث، واستلهاهم المجالات الإبداعية منه، فالأصالة والتجديد متجذرة في الثقافة العربية³، كما أن الفكر العربي والإسلامي قادر على

1- مالك بن نبي، شروط النهضة ، ندوة مالك بن نبي، دار الفكر دمشق، 1985، ص114.

2 - محمد طلعت حرب 1867-1941 مفكر مصري معاصر كان عضواً بمجلس الشيوخ المصري كانت له مساهمات اقتصادية كبيرة في مصر كالمساهمة في تأسيس البنوك والشركات الاقتصادية المختلفة شارك في ثورة 1919 ضد الحماية البريطانية لمصر كما له مساهمات فكرية وأدبية عديدة منها تأليفه كتاب تربية المرأة والحجاب وكتاب فصل الخطاب في المرأة والحجاب للرد على قاسم أمين.

3- زكي نجيب محمود ، ثقافتنا في مواجهة العصر، دار الشروق، بيروت لبنان، 1982 ص9

التوفيق بين الأصالة والتجديد، وهو مفتوح على الغير وقابل للاستفادة من الثقافات الأخرى¹، ولا يحتاج هذا الكلام إلى دليل فمساهمات العرب كثيرة في التراث الإنساني لكن العرب أساء التصرف بها².

لقد أُنجَب القرنان التاسع عشر والعشرون عشرات المئات من الباحثين والمصلحين والمفكرين في المشرق والمغرب العربيين وفي العالم الإسلامي المترامي الأطراف، دعوا أمهم وشعوبهم للنهضة وطرح حالة السبات التي طال العهد بها، دون جدوى فقد قضى أغلبهم نخبه ولما تتحقق حرية الإنسان العربي التي طالما طالبوا بها، ولم تجد القيم الإنسانية إلى تلك البلدان سبيلا.

ويحدد باحثون آخرون معضلة الأنسنة والوعي العربي الإسلامي المعاصر في جملة من النقاط منها:
دور الاستشراق في صناعة نخب متحالفة مع المشروع الغربي، واستمرار هذه النخب في ممارسة سياسة الوعي المزيف والتغريب.

استبداد السلطة الزمنية بالحكم وقمعها للحريات ومساعي المطالبة بالحقوق من طرف الشعوب، فقيم الإنسانية لا تعيش كثيرا في بيئات الاحتقان السياسي والفساد الاجتماعي والقمع الديني والفكري.
تشتت النخب القومية والعربية والإسلامية واستشرء الصراع بينها، وذلك بسبب ارتباطها بالدوائر التقليدية التي دأبت على ممارسة سياسة التخدير والتمويه للشعوب والمجتمعات.

بروز نخب جديدة سعت لاجتثاث الشعوب العربية من ماضيها وتاريخها بتزوير الواقع واستلهاهم التجارب الخارجية وإسقاطها على الواقع المحلي، والظعن في مقومات الشرق وتراثه، ودعا بعضهم صراحة إلى نبذ الدين وطرح القرآن جانبا وتفريغ التاريخ من تأثيره الشعوري في الناس والانخراط في القيم والمثل الغربية المادية، ومن أكثر الفلاسفة والمفكرين تجسيدا لهذه الأطروحات المفكر الجزائري محمد أركون³ والفيلسوف المصري نصر حامد أبو زيد⁴ وغيرهما.

1- محمد عبد الرحمن مرجبا، أصالة الفكر العربي، ط 2 ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983 ص 237

2- محمد عبد الرحمن مرجبا، المرجع السابق ص 241.

3 - محمد أركون 1928-2010 مفكر وباحث نخبوي جزائري، حدثي المنهج، ولد سنة 1928 في بلدة تاوريرت ميمون، آث بني بمنطقة القبائل في عائلة فقيرة، وبعد فترة قصيرة انتقل مع أسرته إلى ولاية عين تموشنت، وهناك واصل دراسته الابتدائية، ثم انتقل لمدينة وهران ليسجل في مدارسها الثانوية التي يديرها الآباء البيض. عاد بعد نيل شهادة البكالوريا ليدرس الأدب العربي والقانون والفلسفة والجغرافيا بجامعة الجزائر، تعرف على الفيلسوف الفرنسي والمستشرق لوي ماسينيون الذي أعانه للالتحاق بجامعة السربون، لمواصلة دراساته.

ينتقد محمد أركون المثقفين والمفكرين الذين يشاركون في الملتقيات المختلفة دون أن يشكلوا أي إرباك للأوضاع السائدة، كتب أركون في ما يسمى "نقد العقل الإسلامي"، ودعا لإعادة قراءة التاريخ وتجريده من القيم كما دعا إلى تفكيك الخطابات التقليدية، والتخلص من النص القرآني وطرحه جانبا لتحرير العقل العربي، ومخاطبة الصحابة كجيل من البشر عاشوا فترة زمنية معينة بعيدا عن التقديس.

4 نصر حامد أبو زيد فيلسوف وحدثي مصري له عدة رؤى في اشكاليات معاصرة وكان من الذين يدعون الى التجديد المطلق والتخلص من النصوص الدينية وأولها القرآن الكريم الذي قال فيه "القرآن هو النص الأول والمركزي في الثقافة ولقد صار القرآن النص المهيمن

غياب حالة الوعي الجماعي بتاريخية العلاقة بين العرب والغرب، وبهتان صورة الغرب في الوعي العربي وافتقار الوعي العربي إلى الواقعية، والوعي بالوجود.

فشل حركات التجديد سواء لبست الوعي الأنسي أو العمامة الدينية في تأسيس حكم مدني بالنمط الغربي الذي تأثرت به، ولم تنجح في تحرير العقل العربي من دائرة الركود والتفريج.

هل يعد اختلاف مسارات الأنسنة في الغرب وفي الشرق بسبب اختلاف البنى العقائدية لكلا العالمين، حيث اعتمد الغرب كلية على العقل البشري، وعده مصدر الإلهام والتفكير الأساسي، في وجود ديانة مسيحية فاشلة وعاجزة على تقديم إجابات مقنعة للعقل الغربي التواق للحرية والبحث، في حين ظل الشرق يستلهم تحت تأثير القيم الفقهية والدينية والعقدية المستمدة من القرآن والسنة النبوية، رغم حالة الركود وثقافة التقليد، معاني صحيحة عن الوجود والحياة، ويتلقى إجابات مقنعة إلى حد بعيد للعقل الإنساني الباحث عن الحقيقة والحكمة من الوجود والغيب وما بعد الغيب؟؟.

وتبقى تساؤلات أخرى بحاجة إلى البحث والسؤال حول المكون الثقافي الإنساني على اختلاف الديانات والمذاهب والملل والنحل وإلى مدى يمكننا أن نعتبره كيان بشري مشترك، ثم هل الثقافة الغربية المهيمنة اليوم تمثل عمقا إنسانيا وتطرح نفسها كملاذ آمن للإنسان المعاصر، فتستجيب لتطلعاته المختلفة، وتحقق له حالة الاطمئنان وتحميه من الاستبداد الفكري والحضاري المائل أمامنا اليوم...؟؟؟

هل الحركات الإصلاحية والإنسانية التي عبّرت عن يقظة العالم الإسلامي والدخول إلى معترك العصر الحديث، بفقده قديم ورؤية تراثية هامة، ارتبطت بالضغط الإمبريالي وبالواقع المتردي للشرق، فسعى المصلحون إلى نهضة شاملة وتنظيم البلاد اقتصاديا وسياسيا على الطراز الأوربي؟؟.

والمسيطر في الثقافة وقد آن أوان المراجعة والانتقال إلى مرحلة التحرر لا من سلطة النصوص وحدها، بل من كل سلطة تعوق مسيرة الإنسان في عالمنا، في عالمنا، علينا أن نقوم بهذا الآن وفورا قبل أن يجرفنا الطوفان"